الحس العملي

في الخلق الانكليزي (١)

يبني الانكليزي أعماله على الاختبار، ويأبى أن يصدّق ملاءمة نظام ايديولوجي ما لم يقتنع بأنه نظام عملي تستطاع ممارسته. فإذا واجه معضلة ما اعتمد على ذاكرته — والذاكرة مرجع الاختبار — أكثر من اعتماده على عقله. بينما الفرنسي يعتمد على الذهن في الحالة نفسها أكثر من الاعتماد على الذاكرة. وهذا يعلل لكم لماذا تستطيعون أن تثيروا اهتمام الانكليزي بمسائل لها أساس أدبي. ذلك بأن أدب النفس هو نتيجة الاختبار. وهو يعلل كذلك لماذا تتركه المسائل الفكرية المجردة فاتراً ولا تحركه. فالحرية والإخاء مجردين لا يعنيان شيئاً في نظره. ومما يستوقف النظر وله مغزاه أن معاملة أقليات معينة في مذاهب أثارت من سخط الانكليز أكثر مما أثاره انتقاد حرية القول والصحافة والنيابة وغيرها من المنشآت التي يعززها الانكليزي ويتمسك بها. فالانكليز يمتازون بأسلوب ممارستهم لنظام ما لا بالمبادىء التي يرسمونها، وبتوجيه منشآتهم ومعاهدهم لا بطبيعة المنشآت نفسها. أي شعب عاقل يأخذ ما أخذه الانكليز — نظاماً تعليمياً وقانونياً موروثاً من القرون الوسطى ونظاماً سياسياً بلغ من التعقيد مبلغاً يجعل تطبيقه، على ما دلت التجارب، متعذراً إلا على الانكليز أنفسهم — ثم يعتبرون ما أخذوه هدية ثمينة؟ ومع ذلك أجرؤ فأقول: وأي شعب آخر استطاع أن يجني من منشآت أخرى تفوق هذه المنشآت، ما جناه الانكليز منها بحسهم العملي وأساليبهم في ممارستها

وإني لأسألكم أن تعيروا النظر معي في ثلاث نواحٍ من نواحي الانكليزية من حيث صلتها بهذا الحس العملي

أولاً تقليد الأمانة في التجارة. ان الاستقامة التي ما فتئت مبدأً سائداً صفة التجارة منذ ثلاثة قرون ليست أول ما قدمناه إلى الحضارة الغربية. وهي ناجمة على الأكثر في نظري من النقطة العملية. فقد جاء «البيوريتان» وهم المتمسكون بمبادىء الدين علموا بأن الله مع المجتهد وانه يجزيه خيراً «أن الأمانة خير سياسة»، أي انهم علموا ان الاستقامة الاقتصادية تؤتي ثمارها في الدنيا والآخرة. والواقع إنها آتت ثمارها في سنين على ما نستطيع أن نحكم — ولكن الانكليزي وحده يصدق ذلك. خذه الحس العملي. [illegible] عقيدتي قديمة من زمن بعيد بأن الأساليب الملتوية لا تجدي وانك لا تستطيع أن تجني خيراً [illegible] وتعقد جنياً مستمراً إلا اذا كانت كلمتك صكك وعهدك. وعلى هذا نشأ التقليد [illegible] الاستقامة في الأعمال التجارية

---

(١) من محاضرة [illegible]

ولكن لهذه الصورة وجها الآخر. فهناك هوة روحية تعترض نحن الآخذين بتقاليد « البيوريتان » المضغوط فيها ، وعلى مقدار ما نتصف بالحس العملي والكفاءة يزداد خطر تعرضنا لهذا الضغط. فاذا كان الله قد كافأ البيوريتان في جانب النجاح الاقتصادي فالشيطان يجب أن يكون ملازماً لمن يخيب وكذلك تصبح الفاقة خطيئة علاوة على أنها مصيبة . وعندما قال تلس — وهو مثل بارز على عبقري عملي — « إن قلة الثروة جريمة لا تستطيع التغلب عنها » كان يعرب عن رأي لم يكن نادراً حينئذ في الدوائر التجارية المحترمة في عصره . ولعل هذا كان الثمن الذي إقتضاه منا إملاؤنا قواعدنا التجارية على أوربا

أما الناحية الثانية من الحياة الانكليزية التي أجد فيها للحس العملي شأناً عظيماً فهي ناحية « الطبقات » . فلسنا نجد في بلد آخر المميزات الاجتماعية التي تنطوي في هذه اللفظة وقد بلغت ما بلغته في انكلترا من التصلب والمرونة في آن واحد . فاذا كانت الطبقة العليا مفصولة فصلاً محكماً عن سائر الشعب ، فتلك طبقة مقضي عليها بالاضمحلال والفناء . أما وقد أحس الانكليز هذه الحقيقة فتراهم يضيفون دائماً الى طبقتهم الارستقراطية أعضاء جدداً يختارونهم من أصحاب الصناعات وأقطاب القوات الحربية ورجال القانون والسياسة وحتى رجال المسرح. وهذا النظام مزدوج الأخذ والعطاء . فأبناء الأعيان الذين يلون الابن الأكبر يصبحون من العامة فيشقون طريقهم في ميادين الحياة المختلفة . والمختارون من العامة يصبحون من الأعيان . وكذلك تستمد طبقة الأعيان استمداداً دائماً قوة جديدة من العناصر القوية في الأمة فتضمها اليها ، بينما تشتمل العامة على الضد من طبقة البورجوى — المتوسطة — في شعوب القارة الاوربية ، على عناصر كثيرة محترمة متصلة بالارستقراطية . وهذا يمثل لنا قول من قال في تعريف التاريخ الانكليزي — إنه الارستقراطية مفتحة الأبواب

وأخيراً هناك الناحية المعينة في ترأي السياسي . فقد عرّف الانكليزي بأنه في طبيعته حيوان سياسي . ولكني لست أفهم لماذا عرف هذا التعريف لأني لا أعرف شعباً أقل عناية من الانكليز بالنظريات السياسية . ولكني انظرون جميعاً واحدة في نظرهم ما زالت لا تمس شخصيتهم ونعاس التوحيد الذي يسيطر عليهم ... ة عمدا هو الفطنة أو الحس العملي فسليم [illegible] هذا يقسم [illegible] زعمهم الخدمة ورغبتهم في الاتفاق الوسط

وربما نستطيع أن نقسم جميع الناس الذين يعنون بالسياسة الى فريقين . ففريق يرى أعضاؤه أنهم يستطيعون أن ينشئوا نظاماً جديداً يقام بعمل عقلي أي أنهم يؤمنون بالاصطناع . فهؤلاء هم الثوريون الذين يرون أن مؤسسات الحرية القائمة في الحاضر ، خاصة في الماضي البعيد ، فيرغبون في إفراغ المجتمع في قالب جديد مصطنع يصنعونه بأيديهم وانقض من القالب الذي أفرغت فيه على مر العصور. أما الفريق الآخر فيشمل الذين ينظرون الى الأشياء على أنها تنمو نمواً ذاتياً ويؤمنون

بأن المجتمع جسم عضوي ، وان فصله عن ماضيه وقطع صلته به يؤذيه وقد يتلفه ويقضي عليه . فالمرء في نظر هؤلاء هو « الماضي » وقد أضيف اليه النمو المتغير الذي ينموه كل قرن من الزمان . وألفاظ « الثوري » و « [illegible] » و « المفرط » [illegible] أو « المحافظ » و « المتطرف » ليست إلا أسماء تخفي وراءها هاتين النظرتين الأساسيتين الى الحياة . انا نرى أحسن هاتين النظرتين في « جودوين » و « برك » . فعندما نشر « جودوين » من قرن ونصف قرن « عدالته السياسية » كان موقفه من المجتمع موقفاً ارستقراطياً في صميمه . فأنكر كل ما سبق . وطلب محو كل ما دوّن على اللوح ، لينشىء على هذا اللوح النظيف ، شيئاً جديداً لم يجرَّب من قبل أي أنه رغب في أن يقطع سلسلة الاستمرار التاريخي في الحياة القومية . كان قوي الحجة ولكنه كان مفكراً ثورياً . أما موقف « برك » فكان موقف من يدرك مغزى التاريخ : فالاجتماع في نظره وليد الزمن . وقطع الصلة بالتقاليد قطعاً باتاً في منزلة الانتحار ، يزري بالحياة كارثة انسانية عظيمة ، فاذا فعلت ذلك فأنت — في رأي برك — تعالج المجتمع كأنه مادة جامدة ميتة ، لا جسماً عضوياً تنبض الحياة فيه

وموقف الانكليز من جودوين وبرك دليل قاطع على منحى عطفهم . فبينما كان جودوين يُنسى ، رقي برك الى مصاف الأعيان . وأسارع الى القول بأن هذا الاختلاف في معاملتهما ليس مقياساً لقيمة أفكارهما . فكثير من أفكار جودوين وآرائه كان مبتكراً . وكثير من آراء « برك » كان عاديًّا معاداً . والواقع أن الأجنبي عن اللغة الانكليزية العاجز عن تذوق فصاحة ديباجة برك وبلاغته يدهش للمنزلة التي نزلناه فيها إلا أن تقدير برك ليس مسألة نستطيع أن نزعم أننا ننظر فيها نظراً مجرداً عن الهوى فهو يؤثر في الحس العملي الذي يتصف به الانكليزي . وهذا كل ما في الأمر لا أكثر ولا أقل

فالانكليزي من الناحية السياسية ، منقاد كبرك للذاكرة ، لا للاختبار لا للعقل المجرد

وأظن أن هذا القدر من الكلام في خلق الانكليزي يكفي للدلالة . واني لأرجح أن يكون ما قلته عن التنوع في خلقه ، وعمله بطابع أو أسلوب من نوع معين ، وحسه العملي ، مفيد في تقدير الاضافات الخاصة التي أضافها الانكليز الى حضارتنا وهي موضوعات الخطب التالية

ولكن هناك شيئاً آخر أريد أن أضيفه الى ما تقدم . كان آخر ما قلته [illegible] أن الانكليزي يؤمن بأن المجتمع البشري نام عضوياً ، فهو يراه شيئاً حيّاً ، ينمو وفقاً لمبادئه وقوانينه الخاصة . ولكن تجارب اليوم . لكي نكافح زمنة اشتدت فيه حمى الاجتماع الى [illegible] وتمردت به لا نرغمه بالقوة في قالب معين ونوحي بارد فاسد . واني لمقتنع بأن عناصر الخلق الانكليزي — وهي الشجاعة [illegible] وبالازدراء والحس العملي القوي — فيها الكفاية لهذا [illegible] وخلاصة أن الانكليزي يجد في فترة كهذه فرصة ليبرهن أتم البرهان على الخلق الانكليزي